

الضحك

كتاب ألفه هنرى برجسون

وعربه الأستاذان سامى الدروبي وعبدالله عبدالنديم.

والكتاب يبحث فى المضحك عامة... مضحك الأشكال، ومضحك الحركات ومضحك الظروف ومضحك الكلمات ومضحك الطباع... وقوة الإمتداد فى المضحك.

علام يدل الضحك؟ وما هو جوهر المضحك؟ ما هو العنصر المشترك بين كسرة من «مهرج» ونكتة فى لفظ، ولُبسة فى مهزلة، ومشهد لطيف فى ملهارة؟ أى تقطير ينتهى بنا إلى تلك الخلاصة والتباسة الواحدة التى تستمد منها هذه المركبات المختلفة رائحتها المرذولة أو عبقها الناعم؟

يقول المؤلف (إن للعبث الهزلى معقوليته الخاصة حتى فى أبعد فلتاته، وهو فى جنونه ذومنهج، وهو حالم، نعم، ولكنه يستحضر فى الحلم رؤى ماتلبث أن يقبلها ويفهمها مجتمع برمته. فكيف لا يفيدنا فى معرفة أساليب الخيال الإنسانى بوجه عام، وأساليب الخيال الاجتماعى الشعبى بوجه خاص؟ إنه ابن الحياة الواقعية ونسب الفن، فكيف لا يحدثنا عن الفن وعن الحياة؟).

وهو يرى أن الشئ يزداد إضحাকা بقدر ما يمكن أن تفسر سببه تفسيراً طبيعياً... إن الذى يضحكننا فى هيئة شخص هو وضع اعتاده واحتفظ به ولكن ضحكنا يزداد إذا استطعنا أن نربط هذه الصفات بسبب عميق.

وهنا نفهم المضحك فى «الكاريكاتير» فالهيئة مهما انتظمت، ومهما انسجمت خطوطها ومرنت حركاتها، لا يمكن أن يكون التوازن فيها تاماً تماماً مطلقاً، ففيها أبداً نذير باعوجاج، وايدان بجمدة.. أى فيها تشوه ما، كان يمكن أن يعيب الطبيعة وفن الكاريكاتير يقوم على إدراك هذه الحركة التى لا ندرك يضحكها ويجعلها مرئية لكل الناس، انه يشوه نماذجه على نحو ما كان يمكن أن تشوه من تلقاء نفسها لو ذهبت بتجمدها إلى أقصاه.

وهذا الفن فن مبالغة من غير شك.. ولكننا نسئ تعريفه أيما إساءة، إذا زعمنا المبالغة غايته.. فرب صورة «كاريكاتيرية» أكثر شبيهاً بصاحبها من صورة «فوتوغرافية» ورب صورة كاريكاتيرية

لا ترى فيها أثرا للمبالغة.. ولقد تسرف في المبالغة إلى غير حد ثم لا تحصل على صورة كاريكاتيرية حقة.. فلكى تكون المبالغة مضحكة، لا ينبغي أن تبدو غاية، بل مجرد وسيلة يستخدمها الفنان في إبراز هذا العوج الذى يراه فى الطبيعة على حال التحفز.

ومن عناصر المضحك: التكرار.

إن كثيرا من مسرحيات موليير تعرض لنا مركبا واحدا من الأحداث، يتكرر من أول الملهاة إلى آخرها فمدرسة النساء L' Ecole des Femmes لا تزيد على أن تعيد وتكرر أثرا ذا ثلاثة أزمان.

وهذا التعاقب الدورى المنظم نفسه نراه فى «مدرسة الأزواج» L' Ecole des Maris وفى «الطائش» L' Etourdi على أنه، مهما يكن من شأن الشخصيات التى تنظم فيما بينها المواقف المتناظرة، فثمت فرق عميق، يظل قائما، فيما يبدو، بين الملهاة الكلاسيكية والمسرح المعاصر. L' Ecole des Maris.

ومن عناصر المضحك، القلب أى قلب المواقف وعكس الأدوار.. فيضحكننا المتهم الذى يحدث القاضى فى الأخلاق، والطفل الذى يلقي دروسا على أبويه، وكل ما يندرج تحت عنوان: «العالم المقلوب» أو مانسميه «الحال المقلوب».

ومن عناصر المضحك، تداخل السلاسل وهذا التداخل يقوم على الالتباس. وقد استخدم «لابيش» هذه الطريقة فى شتى صورها.. فتارة يبدأ بتأليف السلاسل المستقلة، ثم يلهو بجعلها تتداخل فيما بينها.

وعند الحديث عن مضحك الكلمات، نراه يميز بين المضحك الذى تعبر عنه اللغة وبين المضحك الذى تخلقه اللغة أما الأول فمن الممكن عند الاقتضاء، أن يترجم إلى لغة أخرى. ولوقد الجزء الأعظم من رونقه بانتقاله إلى مجتمع جديد مختلف عن الأول بعاداته، وأدابه، وبتداعيات أفكاره على وجه الخصوص.. وأما الثانى فهو، بوجه عام، ممتنع على الترجمة ذلك أنه يرجع إلى بنية الجملة أو اصطفاء الكلمات.

نأتى إلى مضحك الطباع... ويعنى هذا أن يصور عن الشخصية على غير علم منها حركة لا إرادية أو كلمة غير واعية فكل ذهول مضحك وكلمة عمق هذا الدهول كانت الملهاة أرفع...

فالدهول المنظم الذي نلاحظه في «دون كيشوت» مثلا، هو أعظم الأمور التي يمكن تصورهما إضحাকা، بل هو الضحك نفسه عرفناه قريبا من منبعه.

ومن الطريف تعريف المؤلف، الضحك بأنه تأديب قبل كل شيء... وقد وجد ليخزي فلايد أن يشعر موضوعه بشعور مؤلم... والمجتمع ينتقم به ممن يقسون عليه، فلن يبلغ إذن غايته إذا كان يحمل طابع العطف والطيبه.

لقد استخدمت الطبيعة، الشر في سبيل الخير... والخير هو الذي عنانا فرأينا أن المجتمع كلما تقدم أوجد في أعضائه، مرونة في التلاؤم لاتزال تزداد... وهنا يزداد توازنه في الأعماق.. ويطرد إلى سطحه شيئا فشيئا هذه الاضطرابات التي لايد منها في هذه الكتلة الضخمة، وهنا يقوم الضحك بوظيفة نافعة إذ يرسم شكل هذه التموجات.

كذلك الأمواج تصطرع على سطح البحر في غيرتهادن، بينما تلتزم الطبقات الدنيا سلاما عميقا. إن الأمواج تتصادم وتعاكس، وتسعى إلى توازنها... ونرى زبدا أبيض، خفيفا فرحا، مرحا، يخف بحواشيتها المتغيرة.. وإذ ترد الموجة تخلف أحيانا على رمل الساحل قليلا من هذا الزبد. فيأتى الطفل الذي يلعب قريبا فيتناول منه قبضة، فما يلبث أن يستغرب بعد لحظة كيف لايجد في كفه إلا بضع قطرات ماء، ولكنه ماء أشد ملوحة وأشد مرارة من ماء الموجة التي حملته.

إن الضحك ينشأ كما ينشأ هذا الزبد: إنه نذير الثورات السطحية في ظاهر الحياة الاجتماعية، يرتسم فيه على الفور شكل هذه الاهتزازات المتحرك. إنه هو الآخر رغبة مألحة. وكالرغبة يفور من مرح. ولكن الفيلسوف الذي يتناول شيئا منه ليذوق طعمه، يجد أحيانا في قليل من مادته غير يسير من المرارة.

ومن هذا اللون ضحك الشعب المصري.

بقيت كلمة.. إن هذا الكتاب طبع ثلاثا وعشرين طبعة.. وعنوانه يبدو سهلا ولكنه دراسة علمية جادة... وصعبه أيضا وهي بهذا جدية بالقراءة والتأمل والاستشفاف.